المحاضرة09: اتجاهات الرواية الحديثة

تمهيد:

لقد ازدهر فن الرواية في النصف الثاني من القرن العشرين حيث لا نلفي جنسا أدبيا أحظى لدى القراء بالقراءة والمتابعة والنقد كجنس الرواية، وقد ظاهرها على تحقيق هذه المكانة الأدبية الممتازة، أن كثيرا من الإبداعات الروائية تحول اليوم إلى أفلام سينمائية يشاهدها ملايين النظارة، في معظم أقطار العالم محولة إلى اللغات الكبرى في القارات الخمس؛ مما يجعل أفكار الروائيين تصل القراء من أكثر من طريق، وترد عليهم في عقر ديارهم من أكثر من وسيلة إعلامية، ولعل أهم اتجاهات الرواية في الأدب الحديث هي:

أولا - الرواية التاريخية.

إن الرواية قبل أن تبلغ ما بلغته اليوم من وضع ممتاز حملها على إنكار التاريخ، والإنسان، والمكان والحقيقة كانت متزاوجة مع التاريخ زواج وفاء؛ تنشد العلاقة الحميمية بينها وبينه. فهي تصور أحداث التاريخ إما بصورة مباشرة، وإما بإيهام القارئ بأن ما حدث، هو فعلا وقع يوما ما في زمن التاريخ، وأن الشخصيات المرسومة هي حقا تمثل أشخاصا كانوا يحيون ويرزقون؛ مما حمل بلزاك على عد الرواية حليفا للتاريخ.[i]

ولقد ازدهر هذا النوع من الرواية أثناء القرن السادس عشر؛ وذلك كمعظم الأنواع السردية الأخرى في وقت كانت السلطة السياسية فيه آيلة إلى البورجوازية؛ مع ما نعلم من أن التاريخ لم يعالج في أوروبا على أنه علم من العلوم الإنسانية إلا خلال القرن الثامن عشر. ولكن مع اندلاع الثورة الفرنسية شعر القائمون بها بأنهم هم حقا أصحاب التاريخ وفاعلوه؛ فتغيرت الرؤية التقليدية، في أوربا، إلى طبيعة هذا التاريخ وماهيته ووظيفته جميعا.

ولعل الرواية التاريخية ازدهرت كل هذا الازدهار الذي بلغ أوجه؛ لأنها عمدت إلى تحليل الأحداث التاريخية والاجتماعية بشكل فني بارع؛ ثم لأنها كانت في عهد كان الناس فيه لا يفتئون يعتقدون في قيمة سلطان الفرد وسبيله على التاريخ. من أجل ذلك ألفينا الرواية التاريخية تدرج شخصيات جديرة بتمثيل الوطن وروح العصر، والقيم الشعبية، والطبقات الاجتماعية لذلك العصر؛ مع استمازة تلك الشخصيات الروائية بالقدرة على التأثير في الأحداث، والتحكم في سير التاريخ[ii].

ويعرف جروج لوكاتش الرواية التاريخية بأنها «رواية تاريخية حقيقية، أي رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات»[iii]، وعليه فإن الرواية التاريخية وفق هذا المفهوم هي «عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له، ولكنها لا تنقل التاريخ بحرفيته، بقدر ما تصور رؤية الفنان له، وتوظيفه بهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه، أو موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة له»[iv].

خاصة وأن التاريخ يبعث في النفس البشرية التوق للماضي وتقليده في جوانب الخير، فيصبح التاريخ بأحداثه وشخصياته مادة خصبة للرواية، ولقد اهتم الأدباء والكتاب بكتابة الرواية التاريخية التي تعالج القضايا المعاصرة في الساحة العربية، وهذه الفترة هي فترة النضوج للرواية العربية التاريخية.

ثانيا - الرواية الواقعية.

بسبب ظروف الواقع العربي كله اتجه كتاب الرواية العربية من التاريخ إلى الواقعية، بل ومالوا بقوة نحوها وفي الوقت الذي «كانت فيه الواقعية تحتضر في بعض الآداب التي خلفتها مثل الأدب الفرنسي والانجليزي... وهذا يعني أن المذاهب والأشكال الأدبية لا تستورد، ولا تنشأ في مجتمع من المجتمعات إلا إذا كانت ظروف اجتماعية وفكرية وفنية تسمح بوجودها».[v]

ولقد ظلت الرواية الواقعية هي المسيطرة على الإنتاج الروائي العربي منذ سنة 1966م إلى معركة يونيو 1967م، وكتاب هذه المرحلة في مجملهم يكتبون في إطار ما يسمى "الواقعية التقليدية"، كما نجد ذلك في أعمال نجيب محفوظ وحنا مينة وجبرا إبراهيم وجبرا وغسان كنفاني وغيرهم، وأما بعد النكسة فقد ظهرت " الواقعية الجديدة"* التي تعتمد على «المفارقة الحادة والسخرية الشديدة في تصوير البسطاء الذين يعيشون في القرى أو الأحياء الشعبية»[vi]، وفي ظل هذه الواقعية الجديدة، ظلت الرواية العربية الحديثة تبحث عن شكل أكثر جدة يستلهم التراث وينشد الحداثة والمعاصرة.

ثالثا- الرواية الاجتماعية.

يذهب رولان بارط (R.Barthes) في بعض كتابته إلى أن الرواية عمل قابل للتكيف مع المجتمع؛ وأن الرواية تبدو كأنها مؤسسة أدبية ثابتة الكيان، فهي الجنس الأدبي الذي يعبر بشيء من الامتياز، عن مؤسسات مجموعة اجتماعية، وبنوع من رؤية العالم الذي يجره معه، ويحتويه في داخله.

وبهذه السيرة أصبحت الرواية أعمق مدلولا، وأنفع وظيفة اجتماعية وسياسية وثقافية؛ إذ غدت وسيلة من وسائل التربية والتثقيف والترفيه وتهذيب الطباع، وترقيق العواطف وصقلها (دون أن تكون بالضرورة مما يندرج ضمن الأدب التعليمي)، وذلك بحكم شموليتها الثقافية المتميزة في الغالب بالعمق والأصالة الفكرية. وكذلك نلفي الطابع الموسوعي هو الذي يسم كثيرا من الإبداعات الروائية الكبيرة، كما هو الشأن لدى ميكائيل دي سرفانتيس، وجان جاك روسو، وبلزاك، وسواهم من كبار الروائيين الأوائل إذ لم يقتصر الأمر، لديهم، على عكس الواقع الاجتماعي المعقد الفضفاض فحسب؛ وإنما جاوزه إلى تثقيف القارئ في مجال حقول المعرفة الإنسانية[vii].

هذا القسم من الرواية هو أوسع أنواع القصص الحديثة انتشاراً في الأدب العربي، وأكثر ما يعالجه كتاب العصر، والثلاثين سنة الأخيرة شاهدت تحولا ظاهرا في القصة الاجتماعية، والإتجاه الاجتماعي في الرواية العربية اقترن باتجاهات أخري، و كان كتّاب المهجر من أبرز الذين ساهموا في تكوين هذا الاتجاه، إذ صوّروا الكثير من المشكل الاجتماعية والتقاليد الشعبية، و من أبرز أصحاب هذا الاتجاه ميخائيل نعيمة، وكرم ملحم كرم.